الفصل الرابع

من حصاد الفكر

تعريف عام بالدين

الدين

الدين من أهم الأمور التي يهتم بها البشر، وقد يختلف الناس في التعبير عن تصورهم لمعنى الدين، البعض يُعَرِّفُ عنه باعتبار جوهره، والبعض يُعَرِّفُ عنه بالشائع مما اصطلح عليه عموم الناس، وقليل مَنْ يُعَرِّفُ عنه بالمعاني التي عَرَّف بها القرآن معنى الدين، ولا يزال في العرب ومَنْ تأثر بهم مَن يُعَرِّفُ عن الدين بتعريفٍ من عنده، يخترعه عقله أو يمليه عليه هواه

المبادئ جوهر الدين:

الدين (أي دين) جوهره جملة من المبادئ تعتنقها جماعة من البشر وتعمل بها[1]

وعموم الناس يُعَرِّفون الدين على أنه وضع إلهي يسوق ذوي العقول باختيارهم للصلاح في الحال والفلاح في المآل.

أمَّا مفكرو العرب فيرون أنَّ الدين هو ارتباط جماعة إنسانية بإلَه أو آلهة، ويظنون أن ذلك من صنع أذكياء دهاة ماكرين فعلوا ذلك كحيلة لعلاج أمراض المجتمع.

مَن الكافر؟

كلنا يلاحظ أنه إذا سُئِل الناس: من المسلم؟ ومن اليهودي؟ ومن الكافر؟ لكانت الإجابة الشائعة: المسلم هو مَن دينه الإسلام، وكتابه القرآن ونبيه محمد ﷺ، أمَّا اليهودي فدينه اليهودية، وكتابه التوراة ونبيه موسى عليه السلام، أما الكافر فهو الذي لا دين له، هكذا يجيب كثير من الناس، بل ويتعلم التلاميذ ذلك في المدارس، لكنها إجابة خاطئة، لأن

١- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ص ١٠٦٧ ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، الرياض ١٤١٨ هجرية

للكافر دينًا!!

الكافر له دين:

يخبرنا الله ﷻ في كتابه العزيز أن الكافر له دين، نفهم ذلك من قوله ﷻ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]

لماذا يُخاطَب هؤلاء الناس الذين لا يتبعون رسولاً معينًا ولا كتابًا محددًا ولا دينًا سماويًا مسمًّى، بأنهم أصحاب دين يتبرأ منه رسول الله ﷺ ؟ هل المقصود من كلمة دين هنا أمرًا آخر لا يقتصر على الإيمان بكتاب سماوي محدد كما يقول الناس؟ لابد لنا من أن نفهم مدلول الدين ومعنى الإسلام لكي نفهم قول الله ﷻ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾[2]، فيصلح تديننا ويصح إسلامنا

القرآن الكريم يحدد معنى الدين.

لقد جاء القرآن الكريم محددًا معنى الدين مما يُغني عن الرجوع إلى المعاني التي كانت شائعة قبل نزوله، وفي هذا البيان هداية للعربي والأعجمي، وبذلك لا يرتقي فهم مدلول الدين - وهو أمر جوهري - بالقدرة على التعمق في فقه اللغة، خاصة وأن المجتمع قد يكون فيه العربي والأعجمي، وكلاهما مطالب بالإسلام وبالشهادتين دون تمييز بين أساس وآخرين، فمن شأن تكرار التعبد بالقرآن وتلاوته في الصلاة أن يشيع بين

١- سورة الكافرون

٢- من الآية ١٩ من سورة آل عمران

الناس المعنى الصحيح لكلمة الدين الذي يُفهم من القرآن، وقد صار من المتعيِّن الأخذ بيان القرآن والتسليم بمقتضاه

سمَّى الله ﷻ في القرآن ما عليه الكفار دينًا، فما معنى تدين الكافر أو الديونة في حقه؟ لقد استخدمت مادة (دَيَنَ) في القرآن للدلالة على معانٍ محددة مثل المحاسبة، والجزاء، والانقياد، ونظام الحياة.

الدين محاسبة:

أما المعنى الأول: فهو المحاسبة، وهو يُفهم من قوله تعالى: ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[1]، أي يوم المحاسبة، وهو يوم القيامة، وقوله ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾[2] وقوله ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾[3] ومثل ذلك قوله ﷺ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ» [رواه الترمذي، من الحديث ٢٣٨٣]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿بِالدِّينِ﴾ بِالْحِسَابِ، و﴿مَدِينِينَ﴾ مُحَاسَبِينَ[4]، فمن الديونة المحاسبة، حتى أن يوم القيامة سُمِّي. يومُ الدين، إذ يحاسب فيه الناس على أساس مدى التزامهم بما أرسله إليهم المولى ﷻ.

الدين جزاء.

والمعنى التالي للدين هو الجزاء، وتُعبِّرُ عنه كلمة دين في آية ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[5] أي أن الجزاء بالثواب والعقاب واقع، وقد عنون البخاري

١- الآية ٤ من سورة الفاتحة

٢ - الآية ٩ من سورة الانفطار

٣ - الآية ٨٦ من سورة الواقعة

٤- من عنوان باب في كتاب التفسير بصحيح البخاري، تفسير أم الكتاب

٥- الآية ٦ من سورة الذاريات

لباب تفسير سورة الفاتحة أم الكتاب في كتاب التفسير بصحيحه هذا المعنى فقال [وَسُمِّيَتْ أُمّ الْكِتَاب أَنَّهُ يُبْدَأ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِف، وَيُبْدَأ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلاة، وَالدِّينُ الْجَزَاءُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ][1]

الدين نظام وطريقة وقانون

والمعنى الثالث هو النظام والقانون والطريقة والأسلوب والعادة، فمن تعود على أمر ونظّم عليه أموره يقول فيه: إن من ديدنه كذا، إنها طريقته، ولو قلنا: من ديدن أهل القرية – مثلاً – أن يعقدوا السوق يوم الخميس، فهذه عادتهم وتقاليدهم وهذا نظامهم، ولهذا تستعمل كلمة (دين) للدلالة على النظام والقانون، هذا المعنى يتجلى في تفسير آية ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2]

الدين خضوع واستسلام وانقياد

ومعنى رابع تستخدم فيه نفس المادة ومشتقاتها، وهو كمال الخضوع والاستسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[3]، وفي اللغة العربية تقول دِنْتُ القومَ فدانوا، أو: دان القوم لفلان، ففي الدينونة معنى يتمُّ عن علاقة يخضع فيها طرف لآخر أو يطيعه ويُسلِم له القياد إسلامًا

١- من عنوان باب في كتاب التفسير بصحيح البخاري، تفسير أم الكتاب

٢- الآية ٧٦ من سورة يوسف

٣- من الآية ١٩ من سورة آل عمران

كل دين منهج وكل منهج دين:

من أجل ذلك، كانت كلمة دين أنسب وأصدق وأشمل في التعبير عن حال المتدين، إذ المتدين بأي منهج في واقع الأمر هو الذي يرضى بأن يُخضع نفسه لنظام ما، أو لمنهج وعادات وتقاليد يرتب أموره على مقتضاها، ويلتزم بها، ويرتضي المحاسبة على أساسها، وما قد تخبره هذه المحاسبة من جزاء، فمن التزم كُرِّمَ ورُفِعَ وحُمِدَ، ومن نقض عُوتب أو عُوقب أو أُبعد، فكل علاقة هذا وصفها، وكل نظام هذه طبيعته، له من الديمومة نصيب

وهكذا نفهم لماذا للكفار دين؟ لهم دين لأنهم أرادوا لأنفسهم نظامًا يلتزمون به في العادات والتقاليد والتعاملات، وارتضوه معيارًا للمحاسبة بينهم، بل رفعوا فيهم من التزم به ودافع عنه، وحاربوا وأخرجوا وعادوا من تجرأ عليه وخرج عنه، فهو منهج حياة يريد الكفار أن يخضع له المجتمع، إنها حالة متكاملة تتجلى فيها معاني الدين والمديونة من خضوع لنظام ومحاسبة وجزاء

الدين الحق والدين المخترع

ومنهج حياة الإنسان إذا كان من لدن الخالق كان دينًا حقًّا محكمًا قيِّمًا جديرًا بالالتزام، وإن كان من عند غير الله كان دينًا أرضيًّا مخترعًا

ومن أراد أن يضع للإنسان منهجًا للعادات و التقاليد، أو منهجًا للسلوك والأخلاق، أو منهجًا للاقتصاد، أو معيارًا للمحاسبة يجد نفسه متعرضًا لا محالة لمحال أو أكثر من مجالات عمل دين الله

دين الله أولى بالاتباع من أفكار البشر:

قد يجد الناس ما وُضِعَ موافقًا لما جاء عن المولى ﷻ، وهذا نقول فيه أعانا الله بالوحي، وقد يجدون ما وُضِعَ مخالفًا لما جاء عن المولى ﷻ، فنقول فيه دين الله أولى بالاتباع من أفكار البشر[1]

أولى بالاتباع، لأن اتباعه هو الذي يجعلنا عبيدًا لله ﷻ وحده عندما نفرده ﷻ - دون غيره - بحق وضع منهج الحياة التي خلقها، فهو حقٌّ من أخص حقوق الألوهية

أولى بالاتباع، لأنه هو الذي يمنح كل الناس كرامة متساوية، فتطبيقه يحتكم الكل لسيد واحد، فلا يكون بشر سيدًا لبشر

أولى بالاتباع، لأنه الوحيد المبرأ من نتائج الهوى البشري والضعف الإنساني والمنفعة المادية الشخصية التي يدخرها لنفسه من يضع مناهج من البشر

أولى بالاتباع، لأنه الوحيد الذي يتناسق مع نظام الكون كله، يرتكز على أساس من التفسير الشامل الحقيقي للوجود، ويكفل للإنسان التعاون مع القوى الكونية الهائلة، ومسايرة نواميس الكون العلانة بدلاً من التصادم معها

يُقام الدين بجهد البشر.

يتطير بعض الناس من دين الإسلام أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة، ويتوقع البعض أن ينتصر دائمًا الممثلون لهذا الدين بصرف النظر عن توفر الأسباب المادية، ولو قَصَّر أهله في واجباتهم، وتصور بعض المسلمين أن قيام هذا الدين يكون فقط بكلمة كن فيكون، كل هذا -

---

١- للاستزادة يراجع كتاب (هذا الدين) للأستاذ سيد قطب، دار الشروق، ص ١٧ ٢٨

بلا شك – في متناول قدرة الله ﷻ، لكنه ﷻ أراد غير ذلك، لقد جعل الله ﷻ طبيعة هذا الدين أن يقوم في الدنيا وأن يعمل في الحياة مجهد البشر، فلابد من فئة تحمل هذا الدين وتجاهد به –أولاً – في قلوبها حتى تؤمن به إيمانًا كاملاً، وتستقيم عليه بقدر طاقتها، وتجاهد به بنفوسها – ثانيًا – حتى تقرع بنفوسهم من حط بنفوسهم، حتى لو كان حط نفوسهم هذا هو مجرد تمني أن يكون شرف قيام شأن الإسلام فقط على أيديهم، وتجاهد به – ثالثاً – هؤلاء الذين يدفعهم الهوى للوقوف في وجه الهدى، فإن قَصَّرت الفئة التي تحمل هذا الدين عرَّضت نفسها للخسارة، وقد حدث ذلك في غزوة أحد، فقال تعالى ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وقد يكون لهذا التقصير وهذه الخسارة أثر على رفعة دين الله ومنهجه، فقد قال رسول الله ﷺ يوم بدر « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ[2] مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ » [رواه مسلم، من الحديث ٣٣٠٩]

العَلْمَانِيَّة دين الدنيوية

وسمعنا عن دين اللادينية، إذ يخدع الناس أكثر ما يخدعون بما يُطْلَق عليه اسم العلمانية، وأصحاب العلمانية يفسروها بأنها عزل الدين وحبسه في ضمير الفرد، فلا يتحاور العلاقة الخاصة بين الفرد وبين ربه، وهم في العرب يسموها إلى العَالَم[3] وليس إلى العلم[4] كما يظن البعض،

١– الآية ١٦٥ من سورة آل عمران

٢– العصابة الجماعة من الناس

٣– أصلها قبل الترجمة secularism المشتقة من secular ، أي العالم المشهود

٤– العلم في كلام مخترعي العلمانية كلمة science

وترجمتها الصحيحة هي الدنيوية[1]، ومعناها مراعاة المصلحة في هذه الحياة وفقط، والمصلحة هنا هي ما يُعرف بالعقل بعيدًا عن الدين، ودعاة العلمانية في الغرب صُرحاء، ويقولون إنها النظام اللاديني، أمَّا دعاتها في الشرق فهم مخادعون، ويزعمون أنها النظام المعتمد على العلم، وهم يتعاملون مع أصل معناها في لغة من اخترعها؛ لأنه يكشف عداوتها للدين وليس تعايشها معه، ولا يعبر عن ارتباطها بالعلم

ولأن الدنيوية [العلمانية] لها نظام يُراد للناس أن يخضعوا له، وهو يحدد لهم القيم والموازين التي يُعمل بها، ويُحاسب الناس على أساسها، فيرفع ويحترم من الترم بها، ويسد ويحارب من يتجاوزها، فإن هذه اللادينية أو الدنيوية من الناحية الموضوعية هي أيضًا دين، يعمل في نفس المجالات التي تعمل فيها بقية الأديان ومنها الإسلام

إنه امرؤ فيه علمانية

وبالرغم من أن واقع حياة الناس يدل على أن الكثيرين منهم يهجون في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مناهج تخالف شريعة الله، إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة فساد عقيدة المسلمين منهم، بل هم بذلك عاصون لأوامر الله، فليس لنا أن نريد أو أن ننقص في الأقوال والأعمال التي إذا قالها المسلم أو عملها خرجت به من الإسلام وارتد بها إلى الكفر[2]، لأنها محددة من قِبَل الله ﷻ، ووضحها رسوله ﷺ، وهذا ما نأمل إيضاحه في الجزء التالي حين نعرض لتعريف عام بالإسلام كدين

١- أول من عدل ترجمتها إلى [العلمانية] هو [إلياس بقطر] سنة ١٨٢٧ في معجم عربي فرنسي من تأليفه - راجع الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط ٣، ص ٦٩١

٢- المستشار حسن الهضيبي، دعاة لا قضاة، ط دار الطباعة والنشر، ١٩٧٧، ص ٣٥ بتصرف

أمَّا إن صادفت من يخلط في أمره بين منهج الله ﷻ وأي منهج من المناهج الأرضية - علمانية أو رأسمالية أو غيرها - فلا تسارع بتكفيره، فقد يكون ممَّن يقال لهم إنك امرؤ فيك علمانية، وقد قيل مثلها لمن هو أفضل منه، قال رسول الله ﷺ « يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ » [رواه البخاري، من الحديث ٢٩]

*****